مُقَدِّمَة

تعود فكرة هذا الكتاب إلى عشر سنوات ونيف خلت، بعد أن ناقشت رسالة الدكتوراه في جامعة السوربون بباريس عام ١٩٨٨، وكان موضوعها ينصب على تعليم اللغة العربية في فرنسا. وقد عزمت يومها على الانصراف إلى تأليف كتاب في تعليم اللغة العربية يخرج على ما درج عليه مؤلفو كتب تعليم اللغة العربية من أساليب في التأليف وطرائق في العرض، ويتبنى منهجاً جديداً في التصنيف والتأليف يتمثل الاتجاهات المجددة في المناهج وطرائق تدريس اللغات، ويوظف الدراسات اللغوية الحديثة من أجل تطوير تعليم اللغة العربية وتعلّمها.

وإني إذ أقدّر عالياً أولئك الذين ألّفوا في مجال تدريس اللغة العربية وأسهموا في ترسيخه وتطويره، أنوّه بكتابٍ بدا لي الأحدث من بينها والأكثر صلة بالتيارات الحديثة في مجال تعليم اللغات، وقد رجعت إليه غير مرة. إنه كتاب: **أساسيات تعليم اللغة العربية والتربية الدينية** الذي نشر عام (١٩٨١) وألّفه معاً: فتحي علي يونس ومحمود كامل الناقة وعلي أحمد مدكور. لقد أعلنوا فيه عن تبنّيهم للتصنيف الرباعي لمهارات اللغة، ولكنهم لم يتوصلوا إلى مفهوم المهارة المركبة، وعالجوا النحو من منظور شبه تقليدي، واقتصروا في الكتاب على العرض النظري.

والكتاب الذي أقدمه اليوم جاء ثمرة جهد طويل قمت به في مجال تدريس اللغة العربية، والبحث في مناهجها وطرائق تدريسها، وكانت مادته الأولى موضوعاً لاختبار استمر أربع سنوات في كلية التربية بجامعة دمشق، واربع سنوات أخرى في كلية التربية بجامعة الملك فيصل في المملكة العربية السعودية. وفي كل سنة كنت أضيف أو أحذف أو أعدّل أو أطوّر، حتى بدت لي المادة في وضعها الحالي صالحة لأن تكون كتاباً حرصت فيه معاً على **الأصالة والجدة، والاختزال وسهولة التناول.**

لقد بيَّنت لي الخبرة العملية أن طلبة كليات الآداب والتربية الذين ينهون دراستهم ويخرجون إلى ميدان التدريس لايلمّون، إلا نفراً قليلاً منهم، بالمفاهيم الأولية لتعليم اللغات وتعلّمها، التي يشكل إتقانها ضرورة لكل من يعمل في هذا المجال. ولذلك خصصت الفصل الأول، وعنوانه: **مدخل إلى تدريس اللغة العربية**، لتقديم هذه المفاهيم؛ وتناول مفهومي التعلّم والتّعليم والعلاقة بينهما: وتوضيح العلاقة بين علم اللغة وعلم النفس. ورأيت أن أقدّم إطاراً نظرياً يهيء الطالب لدخول مجال تعليم اللغة الأولى (أو الأم) من باب واسع قبل التعمق في الطرائق الخاصة بتدريس اللغة العربية، فخصصت لذلك الفصل الثاني الذي يحمل عنوان:

اللغة: اكتسابها ووظائفها. وفيه استعرضت النظريات الرئيسة في تعلّم اللغة الأولى واكتسابها، وجوانب القوة والضعف في كل منها، وعالجت عدداً من القضايا الهامة التي تتعلق بهذا الاكتساب، ثم تناولت بعد ذلك وظائف اللغة وتباين الآراء فيها. ثم وضعت الطالب، من خلال الفصل الثالث الذي يحمل عنوان: **أشكال اللغة ومهاراتها والتواصل بها**، في صلب القضايا الأساس الخاصة باللغة العربية. وفي هذا الفصل الجديد كلّ الجدة، على ما أعلم، تطرقت إلى عدد من المسائل المعاصرة التي مازالت تشغل المهتمين باللغة العربية وتعليمها؛ وأعطيت تصوّراً واضحاً لمستويات اللغة العربية وأشكالها في الاستعمال المعاصر؛ وقدمت تصنيفاً جديداً لمهاراتها (الرئيسة والمركبة) ولنوع النشاط اللغوي في كل منها؛ وبيّنت مكونات الكفاءة التواصلية للمتعلّم العربي. وهكذا أكون بهذه الفصول الأولى قد أعطيت الطالب بإيجاز ووضوح **المفاتيح الضرورية** لولوج ميدان الطرائق الخاصة بتدريس اللغة العربية، التي تبدأ مع الفصل الرابع.

لقد بنيت الكتابَ على وجهة النظر التي قدمتها في الفصل الثالث، وهي مستمدة من منهجية تعليم اللغات التي تميز في تعلّم أية لغة واستخدامها، أربع مهارات رئيسة هي: **الاستماع والتكلّم والقراءة والكتابة**. فالأوليان شفويتان، وهما إذاً متقدمتان على الأخريين الكتابيتين. وتعليم اللغات الحديث حريص من وجهة نظرٍ نظريةٍ على الأقل، على الترتيب السابق لتعلّم هذه المهارات الرئيسة الأربع: الاستماع فالتكلم فالقراءة فالكتابة. وهكذا فعلت؛ فقد بدأت بتناول تدريس الاستماع (أو الفهم الشفوي)، ثم انتقلت إلى تدريس الكلام (أو التعبير الشفوي)، ثم تناولت تدريس القراءة (أو الفهم الكتابي)، وبعد ذلك عالجت الكتابة (أو التعبير الكتابي). وفي الكتابة ميّزت بين تعليم الإملاء (وهو مهارة مركّبة، وصفية تقعيدية، قوامها الفهم الشفوي والتعبير الكتابي)؛ وتعليم الخط (وهو مهارة مركبة، وصفية تقعيدية، قوامها الفهم الكتابي والتعبير الكتابي)؛ وتعليم التعبير الكتابي الذي هو مهارة رئيسة. ثم عالجت الأدب المكتوب باعتباره تعبيراً كتابياً من النمط الإبداعي. ثم تناولت تدريس البلاغة والعروض، على اعتبار أنهما تابعان للأدب ومرتبطان به ارتباطاً وثيقاً. وبذلك بقيت منسجماً مع المنطق الذي اعتمدته في بناء هذا الكتاب.

وعلى خلاف مادرج عليه مؤلفو كتب طرائق تدريس اللغة العربية أرجأت فصل تدريس قواعد اللغة العربية إلى نهاية المطاف. لقد تناولت النحو، كما بيّنت ذلك في مطلع الفصل الثاني عشر لدى الحديث عن مفهوم النحو وأهميته، من خلال منظور شامل أو مفهوم شامل ذي جوانب نحوية وصرفية وصوتية ودلالية، يتجلى في مفهوم: **الكفاءة اللغوية** كما تطرحة نظرية النحو التوليدي الشومسكية؛ أو في مفهوم: **اللسان**، كما تعبر عنه نظرية فرديناند دو سوسير البنيوية، مع الإشارة إلى الفرق الدقيق بين المفهومين كما بيناه في الفصل الأول. إن كلاً من الكفاءة اللغوية أو

اللسان مفهوم افتراضي يشير إلى النظام الذي يوجه الاستخدام اللغوي الفعلي. وهذا الاستخدام الفعلي للغة يجسده مفهوم: **الكلام**، من وجهة النظر السوسورية، ومفهوم: **الأداء**، من وجهة النظر الشومكسية. وعلى ذلك تكون مهارات اللغة العربية، الرئيسة منها والمركبة، مرتبطة بالنظام من جهة (الكفاءة أو اللسان)، وبالاستخدام الفعلي للغة (الأداء أو الكلام) من جهة ثانية. وتأسيساً على ذلك تكون المهارات السابقة كلها وجوهاً واقعية للكفاءة، أي وجوهاً ملموسة ملاحَظَة بصفة مباشرة نستطيع الحكم من خلالها على مدى إتقان الكفاءة اللغوية التي تمثل نظام قواعد اللغة. وهذا الإتقان هو الغاية من تعليم اللغة وتعلّمها. وبهذا الشكل من تأجيل فصل تدريس قواعد اللغة العربية ليكون تتويجاً لكل ما سبق أظل وفياً للمبدأ الذي بني الكتاب عليه.

ولكي لا يبقى هذا الكتاب نظرياً من جهة، ولاتتكرر فيه عمليات تحضير الدروس النموذجية بعد كل فصل خاص بطرائق التدريس من جهة ثانية، قدّمت فيه، وفي الوقت المناسب، ثلاث تقنيات حديثة في معالجة الدروس، اثنتان منها جديدتان كلياً، فيما أعلم، على كتب طرق تدريس اللغة العربية. فأما التقنية المألوفة والشائعة جداً في مدارسنا العربية فهي تقنية **التحضير وفق منهجية الأغراض السلوكية**. وقد جاءت هذه التقنية في آخر فصل من هذا الكتاب حيث عالجت فيها القضايا النظرية الأساسية وأوردت مثالاً لذلك درساً من دروس الأدب في المرحلة الثانوية. وأما التقنيتان الجديدتان، فأولاهما تقنية **تحليل المضمون** التي طبقتها على قطعة نثرية لابن خلدون بدت لي صالحة لأن تكون درس قراءة في المرحلة الثانوية بسبب من غنى المضمون وسهولة الأسلوب وحجم النص. وبذلك كانت موضوعاً للفصل السابع الذي يلي تدريس القراءة. وثانية التقنيتين تتعلق بمفهوم **التوسيع والتلخيص** في موضوعات التعبير. وبذلك كانت موضوعاً للفصل التاسع الذي يلي تدريس الكتابة. وقد ضمَّ هذا الفصل إلى جانب توضيح القواعد الأساسية للتوسيع والإيجاز، قضايا هامة جداً حول التدريب على نمطي التعبير الشفوي والكتابي.

وتجنبت في هذا الكتاب، عن عمدٍ، الحديث التقليدي عن اللغة وأصلها وأهميتها، وكذلك استعمال مصطلحات قديمة شائعة من مثل فنون اللغة أو فروعها لأسهم في ترسيخ المفاهيم الحديثة الدقيقة الدلالة، الخاصة بالكفاءة اللغوية والمهارات اللغوية. وركزت في هذا الكتاب على المنحى **التواصلي**، الذي ينظر إلى اللغة على أنها وسيلة فاعلة للاتصال والتواصل، فنحن نتعلم اللغة لنستعملها في التعامل مع الناس وقضاء الحاجات، أي لتحقيق أهداف نفعية محددة. إن تعليم اللغة وفق هذا المنحى ينطلق أساساً من حاجات المتعلمين الأساسية التي في ضوئها تحدَّد

أهداف التعلّم، ويعتبر المتعلّم محور العملية التعليمية. ولهذا ميزت (في الفصل الثاني عشر الخاص بتدريس قواعد اللغة العربية) بين الكفاءة اللغوية والكفاءة الاتصالية. والهدفُ الاتصالي يبقى (كما أوضحنا في الفصل الثامن لدى الحديث عن التعبير الكتابي) غاية من غايات التعبير الإبداعي، مادامت الأنواع الأدبية تعالج مشكلاتنا الحياتية والاجتماعية... إلخ، وترمي إلى إيصال فكرة محددة عبر أساليب تعبيرية مختلفة وغير مباشرة.

بقي أن أشير إلى أنني تبنّيت في تقديم مادة هذا الكتاب: **المنهج الحلزوني** الذي يقوم على تناول الفكرة الواحدة بشكل مدروس في غير موضع من الكتاب، فمثلاً قد تقدَّم فكرةٌ أو مفهوم معين في أحد فصول الكتاب، ولكنّ تناولها بشكل مفصَّل لايتم إلاّ في فصل لاحق؛ وقد يقدَّم تعريف لمفهوم أو قضية لغوية في موضع ما من الكتاب، ولكنّ أهمية هذا المفهوم أو القضية ونتائجها تناقش في موضع آخر، أو مواضع أخرى. ومن أمثلة ذلك، ولا نبغي الحصر، أنني قدمت في الفصل الثالث تعريفاً لكل من المهارة الرئيسة والمركبة في اللغة العربية، وعرضت ثبتاً بهذه المهارات، ثم أفردت لكل منها بعد ذلك فصلاً من الكتاب أو بعضاً من فصل. ومن أمثلة ذلك أيضاً أنني عرّفت في الفصل الأول الكفاءة اللغوية والكفاءة الاتصالية واللسان والكلام والأداء، ثم تناولت هذه المفاهيم بالمقارنة والتفصيل في الفصل الثاني، ثم أغنيتها بحثاً ومعالجة في الفصل الثاني عشر. ومن الأمثلة على ذلك حديثي عن نظريات اكتساب اللغة في الفصل الثاني، ثم تناولها بالنقد والتّمحيص والاستنتاج في الفصل الثاني عشر... وهكذا.

فهل أستطيع بعد هذا الذي أسلفت أن أزعم أنني قدمت شيئاً جديداً في مجال تدريس اللغة العربية أخدم به لغتنا وأمتنا العربيتين، ويسوغ اختياري لعنوان الكتاب ؟ إنني أترك للقارئ الكريم مهمة الحكم في ذلك.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

دمشق في٣١ آذار ٢٠٠٢

سام عمار

obeikandl.com